المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد السابع عشر، يونيو ٢٠١٥ و يونيو ٢٠١٦ م

استدعاء العقل لإثبات الآخرة في القرآن الكريم

د. زبير محمد إحسان الحق *

Abstract

To believe in the *Hereafter* is one of the main elements of Islamic faith. This element of faith had been vehemently opposed by the disbelievers of Makkah. They did not believe in resurrection, any life after death. So, the holy Quran addressed the matter with due importance providing some pragmatic evidences related to the daily observations and experiences of the human being. In this paper an attempt has been taken to present logical arguments in accordance with the Quranic expression to establish the requisiteness of the *Hereafter*. The paper has been designed pursuing the descriptive and analytical research methods. It is hoped that the readers, by going through the paper, will gain a clear idea regarding the requisiteness of the *Hereafter*.

Keywords: Articles of Islamic faith, Hereafter, Quranic verses, Logical arguments.

١. تقديم

إن الإيمان بالآخرة من أهم بنود العقيدة الإسلامية التي تقود اتجاه الحياة البشرية؛ فالإنسان الذي يؤمن بالحياة الآخرة ويعتقد بملاقاة ربه ومواجهة الحساب والجزاء فهو يسلك الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم. وأما الذي لا يؤمن بالآخرة فيسير في حياته حسب المشيئة بدون أي شعور بالحساب في الآخرة.

* أستاذ مشارك، قسم العربية، جامعة داكا

فالإيمان بالآخرة له أهمية كبيرة في بناء المجتمع المطهر والمفعم بالأمان والسلامة. والدعوة إلى الآخرة كانت من أهم الأمور التي نادى إليها الأنبياء عليهم السلام. وما كانت دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم بمستثناة عمن سبقوه من الأنبياء عليهم السلام. وقد واجهتْ دعوته هذه بالردود العنيفة من الكفار فالله سبحانه وتعالى أيد نبيه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، استدعى من خلالها عقول الناس ليستخدموها حتى يعرفوا بأن الآخرة لآتية لا محالة. وفي هذه المقالة الوجيزة نحن نقدم البراهين العقلية التي بها استدعى الله تبارك وتعالى عقول الناس لإثبات الآخرة.

٢. الآخرة

الآخرة بالمد ثم بالكسر تأنيث الآخِر، وهو عكس الأول. وآخَر بفتح الخاء وهو يقابل الواحد. والمراد بالآخِرة في استعمال القرآن هي الدار الآخرة أو الحياة الآخرة التي تعني النشأة الثانية، وتقابلها الدنيا والمراد بها كذلك الدار الدنيا أو الحياة الدنيا وهي تعني النشأة الأولى.[١] وقد ورد في القرآن ذكر الآخِرة مع موصوفها كما قال تعالى: "قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ.." (القرآن، ٢: ٩٤)، إلا أن استخدام هذه الصفة (الآخرة) منعزلة عن موصوفها أكثر، كقوله تعالى: "وبِالآخِرَةِ هم يُوقِنُون" (٢: ٤). وأمثالها كثيرة في القرآن الكريم، فأصبحت الآخرة–وهي موصوفة- عَلَما بالغلبة وكثرة الاستخدام، والمراد بها في العقيدة الإسلامية الحياة الحاصلة بعد الموت لإجراء الجزاء على الأعمال. وللآخرة منازل، تبدأ بالموت ثم البرزخ ثم البعث ويليه الحشر والجزاء بالجنة أوالنار. ولا نريد الإطالة فيها.

٣. أهمية الإيمان بالآخرة

إن الإيمان بالآخرة عنصر مهم من عناصر العقيدة الإسلامية وهي ستة: الإيمان (١) بالله (٢) وملائكتِه (٣) وكتبه (٤) ورسله (٥) واليوم الآخر ثم (٦) القدر. وهذا الترتيب معروف لدى عامة المسلمين كما هو مُبيَّن في الجملة المشهورة بالإيمان المفصّل. وقد اهتم القرآن بالإيمان بالآخرة اهتماما بالغا وأكبر برهان عليه الإشارةُ إلى الآخرة في سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب[٢] حيث وصف الله البارئ تعالى نفسه بمَالِكِ يَوْمِ الدِّين (القرآن، ١:٤). والدين هو الجزاء والحساب، فيوم الدين يوم الحساب للخلائق وذلك في الآخرة. ثم إن الله جلّتْ عظمته لما أورد أوصاف المتقين في أوائل سورة البقرة عالج أمر الآخرة إلمام كبير حيث أفردها بالذكر في قوله "وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" (القرآن، ٢: ٤)،مع أن الإيمان بالآخرة كان متضمنا في الإيمان بالغيب المذكور في الآية السابقة (القرآن، ٢: ٣). أضفْ إلى ذلك التصاق كلمة الإيقان بالآخرة بدل الإيمان في تلك الآية، واليقين هو العلم بالشيء عن رؤية وتبصر واستدلال وهو أخص من الإيمان.[٣] وقد أسلفنا بأن العادة جرتْ بذكر الآخرة في الترتيب الخامس من عناصر العقيدة الإسلامية. وأما في القرآن فقد وردت الآخرة في مواضع كثيرة بعد ذكر الايمان بالله مباشرة كما قال تعالى: "وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِينَ ... (٢: ١٧٧)". الآيات التي تلاصق اليوم الآخر بالإيمان بالله كثيرة.[٤]

وأهمية الإيمان بالآخرة مكنونه في هذه الحقيقة بأن اليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يحيى بين حياة الحس المسدودة، ومن يعيش في الوجود الواسع الفسيح، وبين من يشعر بأن الحياة الدنيا هي كل ما له في هذه الدار ومن يشعر أن حياته في هذه الدنيا اختبار يمهد للحساب والجزاء، وأن الحياة الأصيلة إنما هي هنالك

وراء هذ النطاق الصغيرالمحدود.[٥] ولا نريد إطالة الكلام في الأهمية، بل نود أن نركز عنايتنا في موضوع إقامة البراهين لإثبات الآخرة، إلا أنه يليق لنا أن نقدم لمحة سريعة عن حجج وأدلة الكفار التي اعتمدوا عليها لإنكار الآخرة.

٤. إنكار الكفار والمشركين للآخرة وحجتهم

إن الكفار والمشركين ينكرون الآخرة وبالتالي ينكرون البعث والحساب والجزاء وهذا الأمر يرسم حدود حياتهم وفلسفتهم إلى الوجود والكون. فلما لم تكن هناك آخرة فالبداية والنهاية في هذه هى الحياة الدنيا، فلا مانع عن تمتع الحياة حسب المشيئة ولا حدود للذة والمتعة ولا مسئولية إلى المجتمع أو الدولة. ومن العجيب أن منكري الآخرة كانوا موجودين في كل زمان ومكان والأعجب منه أن الملحدين التجؤوا إلى حجج ودلائل متشابهة على مرالعصور. فكفار مكة لما أنكروا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وبالتالي أنكروا الدار الآخرة استندوا إلى نفس الحجج التي اعتضدوا بها كفار الأقوام السابقة التي أرسل إليهم الأنبياء عليهم السلام قبل نبينا الحبيب عليه أفضل السلام وأزكى التحية. وقد حكى الله عن عاد أو ثمود إنكارهم للآخرة حيث جاء في القرآن الكريم: "أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إذا مِتُّمْ وكُنْتُمْ تُرابًا وعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ.. إن هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ ونَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" (٢٣: ٣٥-٣٧). فاستبعدوا الحياة الجديدة بعد موتهم وصيرورتهم ترابا وعظاما، وبالتالي فإنهم أنكروا البعث والنشر والجزاء. وقد جاءهم هذا الاستبعاد لسبب حصرهم أنظارهم على الأمور الظاهرية وعدم تفكيرهم العميق في خلقهم أنفسهم وفي خلق المخلوقات التي يحيطها الجو الكوني.

ومع مرور الزمان لم يحدث تطور ملحوظ في ذهنيات الناس وعقولهم؛ فلما بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم دعوته السماوية –

وكـان مـن ضـمن دعايتـه الـدعوة إلـى الإيمـان بـالآخرة- واجـه عليـه السـلام نفـس المشـاكل التـي لاقاهـا الأنبيـاء السـابقون الكـرام-عليهم السـلام- واسـتند كفـار مكـة محتجـين لإنكـارهم للآخـرة إلـى تلـك الأدلـة علـى وجـه التقريـب. فـالقرآن الكـريم عنـد تناولـه موضـوع الإيمـان بـالآخرة يتعـرض –وفقـا للعـدل الإلهـي- لحجـج الكفـار والمشـركين باهتمـام بـالغ؛ فسـردها سـردا واضـحا حتـى يعقـب عليهـا بـالرد الحاسـم. فقـال واصـفا لـرؤى الكفـار عـن الآخـرة: "إنْ هِـي إلاَّ مَوتَتُنـا الأولـى ومَـا نَحْـنُ بِمُنشَـرِينَ (٤٤: ٣٥)" وقـال أيضـا: "ولَـئِنْ قُلْـتَ إنَّكُـمْ مَبْعُوثُـونَ مَـنْ بَعـدِ المَـوتِ لَيَقُـولُنَّ الـذِّينَ كَفَـرُوا إنْ هـذَا إلاَّ سِـحْرٌ مُبِـين"(١١: ٧). وبلـغ إنكـارهم للآخـرة إلـى حـد أقصـى حتـى اجتـرؤوا علـى عـزو مـرض نفسـي الجنـون إلـى النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم والسـبب يسـير وهـو أن إنـذاره يشـتمل علـى الـدعوة إلـى الإيمـان بالنشـأة الثانيـة: "وقَـالَ الـذِّينَ كَفَـرُوا هَـلْ نَـدلُّكُمْ علـى رَجُـلٍ يُنَبِّـئُكُمْ إذَا مُـزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَـزَّقٍ إنَّكُـمْ لَفِـي خلَـقٍ جَدِيـد؟ أفتـرى علـى اللـه كَـذبًا أم بِـه جِنَّـة؟" (٣٤: ٧-٨) ثـم تَعَـرَّضَ القُـرآنُ لمبـرراتهم المنكـرة للآخـرة حيـث جـاء فـي الـذكر الحكـيم: " أإذا مِتْنَـا وكُنَّـا تُرَابًـا وعِظَامًـا أإنَّـا لَمَبْعُوثُـون؟ (٣٧: ١٦)" وقـال تعـالى: "وَقَـالَ الـذينَ كَفَـرُوا أإذَا كُنَّـا تُرَابًـا وآبَاؤُنَـا أإنَّـا لَمُخْرَجُـون (٢٧: ٦٧)." وأضـاف القـرآن قـائلا: "أإذَا مَتْنَـا وكُنَّـا تُرَابًـا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد (٥٠: ٣)." والآيات بهذه المعنى كثيرة.[٦]

ويبـدو مـن هـذه الآيـات أن كفـار ومشـركي مكـة عنـدما جحـدوا الآخـرة اتخـذوا حجـج الكفـار السـابقين مـن اسـتبعاد الحيـاة الجديـدة بعـد تقلبهـا عظامـا وترابـا.والسـبب يرجـع إلـى حصـر نظـرهم علـى الأمـور بـادئ النظر بدون التفكر العميق في عالم المخلوقات.

٥. البراهين العقلية لإثبات الآخرة في القرآن الكريم

إن الله تبارك وتعالى بعد ذلك أورد الحجج لإثبات الآخرة ما يبطل الأدلة الفاسدة للكفار، وفي القيام بذلك طلب من الناس استخدام عقولهم السليمة في التفكر العميق في الحياة والكون وفي خلق أنفسهم علّهم يدركون قدرات الله المطلقةالسليمة عن كل عجز وعيب. وإليكم الآن تلك الحجج والبراهين:

٥. ١. الإنشاء الثاني أسهل من الإنشاء الأول

إن كفار مكة كانوا يؤمنون بأن الله خالق الإنسان وخالق السموات والأرض (القرآن، ٣٩: ٦١) ولكنهم زعموا أن الموت ختام نهائي للموجودات وبالتالي أنكروا النشأة الثانية أو البعث في الآخرة. وقد احتوى الله تبارك وتعالى هذا الاستنكار والرد عليه في هذه الآية: "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وهِيَ رَمِيم؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أولَ مَرَّةٍ وهو بِكُلِّ خَلقٍ عَلِيمٌ. (٣٦: ٧٨-٧٩)."وفي آية أخرى : "إِنَّهُ يَبْدَؤُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُه (١٠: ٤)"، وأضَافَ تعالى قائلا: "قُلْ هَل مِنْ شُرَكَائكُمْ مَنْ يَبْدَؤُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ قُلِ اللهُ يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ فَأَنَّى تُؤفَكُون" (١٠: ٣٤). والآيات الدالة على هذه المعنى كثيرة.[٧] ووجه الاستدلال أن ابتداء خلقهم من العدم يدل على إمكانية إعادة خلقهم بعد الموت.

ثم إننا نشاهد في خبراتنا اليومية بأن الأعمال صعبة التنفيذ في المرة الأولى ثم تصير سهلة التنفيذ على التكرار، فكلما جدد تنفيذها ازدادت سهولتها. وهذا من وقائع العيان التي لا ينكرها أحد. فالطفل يتهادى وتزل قدمه في أول عهده بالمشي، ويجاهد متواليا وبعد أيام قليلة يمشي بثقة واطمئنان؛ وسُواق السيارات تتلتل أيديهم في بداية تدريباتهم على السياقة، ومع مرور الزمان وبعد توالي الممارسة يحذقون القيادة. فلو استخدم الناس عقولهم في تطبيق هذه التجربة

على إثبات الآخرة لعلموا بأن النشأة الثانية ممكنة بل ايسر و أسهل. وإلى هذه الحقيقة الجلية جذب التعبير القرآني أنظار الناس وعقولهم، حيث قال تعالى: "وَهُوَ الذِي يَبْدؤُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أهوَنُ عَلَيهِ" (القرآن، ٣٠: ٢٧). والاستدلال بهذا الوجه أشبه بالتسليم الجدلي في المناظرة. ذلك لأنهم لما أقروا بأن الله هو بادئ خلق الإنسان (٣٩: ٦١)، وجحدوا استعادته بعد الممات واستُدل عليهم هنالك بقياس المساواة، ولما كان جحودهم الإعادة بعد الموت محتويا على تحديد مفعول المقدرة الإلهية جاء التنازل في الاستدلال إلى أن تحديد مفعول المقدرة لو سلم لهم لكان يستلزم احتمال البعث في الآخرة بقياس أحرى، فإن إعادة المخلوق مرة ثانية أسهل على الخالق من خلقه الأول وأدخل تحت تأثير قدرته فيما تعارفه الناس في مقدوراتهم.[٨]

وقال تعالى في نفس المعنى: "أو لَمْ يَرَوا كَيْفَ يُبْدِئ اللهُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، إنَّ ذلِكَ على الله يَسِير" (٢٩: ١٩). وفي آية أخرى: "أفَعَيِينا بالخلق الأول؟ بل هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلقٍ جَدِيد (٥٠: ١٥)."ومعنى الآية إنا ما عجزنا عن الخلق الأول للإنسان فكيف نعجز عن إعادة خلقه؟

٢.٥. إحياء البلدة الميتة بالحيا

إن الله تبارك وتعالى خلق الأرض وجعل لها مواسم من الصيف والشتاء والربيع وغيرها. ويتغير المناخ بتغير الفصول. ففي الصيف الحار تحترق الأرض وتموت نباتاتها فتصبح جدبا بلا حياة حتى يخيل بأنه لم تكن في الأرض نبات ألبتة. ثم يقبل المطر نازلا من السماء فتنبت النباتات وتنتشر الأمواج الخضرة في الجوانب الأربع وتحيي الأرض بعد موتها. وهذا أمر مشهود تجدد الأبصار معاينته مرة على الأقل في كل سنة.

وقد عرض التعبير القرآني هذه الحقيقة في معرضين: معرض الوحدانية وتوحيد الربوبية، ثم في معرض إثبات الآخرة؛فاستدعى العقول أولا للتدبر في تحول الأراضي الميتة إلى أرض حية خصبة حتى تُدرِك الخالقَ الربَ المدبرَ الشئونِ كلها حيث قال تعالى في القرآن الكريم: "وَمِنْ آياته ... ويُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فيُحْيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلُوْنَ" (٣٠: ٢٤). ثم جذب الله أنظار الناس إلى نفس الحقيقة الطبيعية المشهودة المتكررة غير المرفوضة، وهي إحياء الأرض بعد موتها؛ وذلك استدلالا لإثبات الآخرة وإعادة الحياة إلى الأموات فقال جلّتْ عظمته وتقدّستْ أسماؤه: "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماء مَاءً مُبَارَكًا... وأحْيَيْنَا به بَلْدَةً مَيتًا، كَذَالِكَ الخُرُوج (٥٠: ٩ -١١).وقال أيضا: "والله الّذِي أرْسَلَ الرّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا، فَسُقْنَاه إلى بَلدٍ ميتٍ فأحيينَا به الأرضَ بعدَ موتها، كَذَلِكَ النُّشُورُ" (٣٥: ٩). وقال في سورة الروم: "فَانْظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا، إنّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتى، وهو عَلَى كُلّ شَيءٍ قَدِير" (٥٠). وفي آية أخرى في نفس السورة: "يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الْمَيّتِ ويُخْرِجُ الميت من الحي ويُحيِي الأرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وكذلِكَ تُخْرَجُونَ" (١٩).

وقد روي عن النبي صلى الله عليه ما يقارب بالمعنى المذكور فى الآية فقد أخرجه الإمام أحمد وابن أبي شيبة وشبيهله مثل ما عند صحيح مسلم عن عروة بن مسعود عن النبي صلى اله عليه وسلم"قيل لرسول الله: كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: هل مررت بواد أُهْلِك ممحلا ثم مررت به يهتز خضرا؟ قيل: نعم. قال: فكذلك يحيي الله الموتى، وتلك آيته في خلقه".[٩]

فالمطر النازل من السماء آية من آيات الله تحيي موات القلوب كما تحيي الأرض الجدبة. ولمشهده أثر قوي على القلب. وليس الصبيان وحدهم يفرحون بالرجع ويطيرون له خفافا، بل قلوب الكبار الرقيقي

الشعور تستروح هذا المنظر وتصفق له كقلوب الأطفال الأنقياء، الحديثي العهد بالفطرة.[١٠] وعملية إحياء الأرض بالحيا يعني جعلها خصبة خضرة بعد أن كانت جدبة عمليةٌ دائمة التكرار فيما حول الناس، مألوفة لهم، ومعقولة بدون النظر العميق والتفكر الدقيق. وكذلك الخروج يعني إحياء الناس بعد الممات في الآخرة سوف يتحقق بهذه الوتيرة وبهذه السهولة. فاستخدام أدنى تفكر في إحياء الأرض الموات بالماء المبارك النازل من السماء كاف للناس للحصول على الاعتقاد بأن الله قادر على أن يحيي الموتى. ولكن المشركين حكموا الإلف في موضع تحكيم العقل.

٥. ٣. "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس"

إننا نلاحظ من خلال خبراتنا اليومية بأن الصناعة ترتقي وتتطور يوما فيوما وتزداد مهارات الصانعين فوقية بكثرة الممارسة والاختراعات حتى تخترع الآلات الجديدة وتصبح الآلات القديمة معطلة. ومع تطوير المهارة وتحسينها يخيل عند المهندس بأن المهارة البدائية والآلة الأولية عديم الجدوى. فالمهندس الذي يصنع محرك الحافلات لَيسهل عليه صناعة محرك السيارات الصغيرة. وبناء على هذه اللازمة نستطيع أن ندعي بجزم بأن خالق الأجسام الضخمة يسهل عليه خلق الأجسام الضئيلة.

وقد استدعى الله سبحانه وتعالى عقول الناس مستخدما هذه الحجة الناشئة من تجاربهم اليومية لإثبات البعث والنشر. فقال جلت عظمته وتقدست أسماؤه: "لَخَلْقُ السَّماوات والأرضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ولكِنَّ أكثَر النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (٤٠: ٥٧). وقال تعالى في سورة يس: "أو ليسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ بِقَادِرٍ عَلى أنْ يخلُقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلى، وهو الخَلاَّقُ العَلِيم" (٨١). وما أوضح الآية التالية من سورة الإسراء: "أَوَلَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرضَ

قَادِرٌ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم.." (٩٩)! وقال جلتْ عظمته: "أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى؟ بَلَى إنَّه عَلَى كُلِّ شَيْئٍ قَدِير (٤٦: ٣٣).

ونحن قد أسلفنا بأن كفار مكة -مع إنكارهم البعث- كانوا يُقرون ببعض جوانب توحيد الربوبية كاعترافهم بأن الله تبارك وتعالى خالق السماوات والأرض. وبناء على ذلك الإقرار يقيم الله حجة عليهم مستخدما فيه المنطق الواقعي. فالآيات المذكورة آنفا تقول بأن بعث الأموات لا يبلغ أمره مقدار السماوات والأرض بالنسبة إلى قدرة الله تعالى. فلنقارن - مثلا- بين الإنسان وملكوت السماوات والأرض من حيث الخلق والجبلة.

هذه الأرض التي نعيش فيها عضو صغير من النظام الشمسي تبلغ كتلتها ثلاثة ملايين من كتلة الشمس! وهذه الشمس واحدة من نحو مائة مليون من الشموس في درب التبانة القريبة منا، والتي نحن منها. وقد كشف البشر - حتى اليوم- نحو مائة مليون من هذه الدروب(!) منتشرة في الفضاء الضخم الهائل من حولها تكاد تكون ضالة فيه! والذي كشفه البشر ناحية ضئيلة صغيرة لا تكاد تذكر من بناء الكون! وهو - على ضآلته – هائل وواسع يدير الرؤوس محض تصوره. فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعون مليونا من الأميال. ذلك أنها مركز أسرة كوكبنا الأرضي الصغير. بل هي - على الأرجح- أم هذه الأرض الصغيرة. ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة: ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال!

أما المجرة التي تقع خارج دائرة الشمس فقطرها نحو من مائة ألف مليون سنة ضوئية. والسنة الضوئية معناها مسافة مائة مليون ميل! لأن سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومائة ألف ميل في الثانية! وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبتعد عنا بنحو خمسين

وسبعمائة ألف سنة ضوئية! ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هي التي استطاع علم البشر الضئيل القليل أن يكشف عنها. وعلم البشر هذا يعترف ويقر أن ما كشفه جزء صغير في هذا الكون العريض الواسع. وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب؟[١١]

فالله الذي خلق الأرض وما فيها وخلق الشمس، بل الشموس والمجرات المعلومة وغير المعلومة والكون كله لقادر بدون شك ولا ريب على أن يحيي الناس في الآخرة، لا ينكره إلا جاهل أو عنيد.

٥. ٤. وجود الآخرة موجب محتم لإقامة العدل المطلق

إن الله جلّ شأنه جعل الناس أشرف المخلوقات وفضّلَهم على جميع الخلائق (القرآن، ١٧: ٧٠). ومن أعظم النعم التي أنعمها الله عليهم العقل والضمير. ومع ذالك نلاحظ مع الأنف الشديد ، بأن العالَم مملوء بالظلم والقتل والفتنة والفساد. وكثير من هذه الأمور الجائرة تمر بدون انتقام أو إقامة عدل من الجائرين حتى لو أن الحكومة تحاول حق المحاولة لإقامة العدل في المجتمع والدولة وبين العباد ما تستطيع ذلك. فمثلا أن قاتلا قتل مائة شخص، فكم مرة يقام القصاص على هذا القاتل؟ والجواب معلوم عند الجميع: على الأكثر مرة واحدة. فهل يتم إقامة العدل بتنفيذ قصاص على شخص واحد مرة واحدة وقد قتل ذلك القاتل مائة شخص؟ فمما عُلم قطعا بأن إقامة العدل المطلق غير ممكنة في عالم الدنيا مهما يكون الحاكم عادلا ومهما حاول ذلك الحاكم العادل إقامته. إلا أن العقل السليم الذي أعطاه الله الناس يقتضي إقامة العدل بشكل كامل وذلك بإقامة القصاص على ذلك القاتل مائة مرة لأنه قتل مائة رجل. وهذا التطلب السليم يقتضي وجود نظام آخر يمكن فيه إقامة العدل بوجه تام، وهذا النظام هو الآخرة في مصطلح القرآن. والمجرمون سينالون

عقابهم حق العقوبة بقدر معصيتهم بدون جور ولا ظلم فسوف يقام في تلك الدار العدل المطلق الذي لم يتم في هذه الدنيا.

فالله سبحانه وتعالى أعلن بصراحة بأن خلق الناس ليس عبثا حيث قال: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ؟ (٢٣:١١٥) وأن الظلم لا يهدر حيث جاء في التنزيل العزيز: "ولا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهم لِيَومٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَار" (١٤:٤٢)، وأن الإنسان يجزى الجزاء الأوفى: "ثُمَّ يُجْزاه الجَزَاءَ الأوفَى" (٥٣:٤١). وأن إقامة العدل المطلق سيتحقق في الآخرة: "نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" (٢١:٤٧).

٥. ٥. الحياة من الممات حادثة يومية في الأرض

العالم مملوء بالحياة وعملية الحياة والممات واقعة يومية في الدنيا. فكم كائن حيّ يموت وكم مادة ميتة تحيي! وقد استخدم الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة برهانا لإثبات الآخرة حيث جاء في القرآن الكريم: يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيتِ ويُخْرِجُ الميتَ مِنَ الحَي ويحيي الأرض بعد موتها، وكذلك تُخْرَجُونَ (٣٠: ١٩).

ومثال إخراج الحي من الميت: تولد أطفال الحيوان من النطف ومن البيض،وخروج الزرع من الحب، والنخلة من النواة وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء.[١٢] فالنطفة أو البيضة أو النواة تكون لا حياة فيها ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ثم تكون فيها الحياة. وهذا أمر يشهده الكفار مرارا كل يوم في حياتهم اليومية، ومع ذلك هم استبعدوا إحياء الناس بعد مماتهم من العظام والتراب! فالله سبحانه وتعالى اجتذب أنظارهم إلى هذا الواقع الأبلج بأن الله الذي أجرى عملية إحياء الممات آلاف آلاف مرة كل يوم، بل كل لحظة لقادر بطريق أولى على أن يحيي الموتى من العظام في الآخرة.

٥. ٦. الإنشاء الأول من المادة السائلة والإنشاء الثاني من المادة الصلبة

نحن نعلم بأن أحوال المادة ثلاثة: الصلبة، والسائلة والغازية. وهذه المواد الثلاث نحتاج إليها لإنشاء أي جسم حيا أو جمادا، إلا أن قوام الأجسام هي المادة الصلبة. فمثلا نحن عندما نشيد مبنى نستخدم موادا صلبة من أمثال قضيب الحديد والأسمنت والرمال وغيرها كما نستخدم موادا سائلة نعني الماء، إلا أن قوام المبنى على القضيب وبعبارة أخرى على مواد صلبة. وبناء على هذه الخبرة اليومية ندعي بجزم بأن الإنشاء بالمادة الصلبة أسهل وأثبت من الإنشاء بالمادة السائلة. وقد دعا الله الناس إلى استخدام عقولهم للتفكر في هذه الخبرة اليومية حتى يأتيهم اليقين بسلطان الله المطلق القادر على إحيائهم من العظام وهي المادة الصلبة وقد خلقهم لأول مرة من الماء وهي المادة السائلة: "أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِي يُمْنَى؟ ثُمَّ كَانَت عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأنْثى. أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِرٍ عَلى أن يُحيِيِ المَوتَى؟ (القرآن، ٧٥: ٣٦-٤٠)ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى لم يخلق الإنسان عبثا. فهو ليس متروكا بل مقيدا بالمأمورات والمنهيات في الدنيا ومحشورا في الآخرة. والعجب أن الإنسان استبعد نشوره في الآخرة والحقيقة أنه كان نطفة ضعيفة من ماء مهين يراق من الأصلاب في الأرحام، فصار علقة ثم مضغة ثم نفخ فيه فصار خلقا آخر سليم الأعضاء ذكرا أو أنثى. أَمَا هذا الذي أنشأه من النطفة الضعيفة المهينة وهو الله سبحانه وتعالى بقادر على أن يحييه كما خلقه أول مرة؟ فكأنّ الله أشار إلى هذه الحقيقة الواضحة بأن الخلق الأول كان من الماء والخلق الثاني سيكون من العظام فهو الأسهل. وأيدته الآية الأخرى في سورة الروم "وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه (٢٧)."

٦. الاختتام

ومن خلال العرض السابق في هذا المقال القصير يتضح لنا بأن الإيمان بالآخرة من أهم عناصر العقيدة الإسلامية، وأن الكفار والمشركين أنكروها وفقا لمسيرة حياتهم المادية، فأعطى الله تبارك وتعالى اهتماما بالغا لإثبات الآخرة وذلك باستدعاء عقول الناس السليمة إلى بعض خبراتهم اليومية من أمثال إنشاء الحياة من الممات وإحياء الأرض بعد موتها وما إلى ذلك. ويبين أيضا بأن القراءة المرتلة الموضوعية للقرآن الكريم تزيل الشكوك من نفوس المترددين عن المعتقدات الإسلامية عامة وعن إمكانية وقوع الآخرة خاصة.

المصادر والمراجع

١ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (مكتبة نزار مصطفى الباز، ب.ت)، ج. ١، ص. ١٦؛ الزمخشري، تفسير الكشاف (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٩)، ص. ٣٩؛ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار التونسية للنشر، ١٩٨٤)، ج. ١، ص. ٢٤٠.

٢ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (القاهرة: دار التقوى ٢٠٠١)، ج. ٢، ص. ٤٥٣.

٣ ابن عاشور، المرجع السابق، ج. ١، ص. ٢٤٠.

٤ القرآن الكريم، ٢: ٨؛ ٢: ٦٢؛ ٢: ١٢٦؛ ٢: ٢٣٢؛ ٣: ١١٤.

٥ سيد قطب،في ظلال القرآن(بيروت: دار الشروق١٩٩٦)، ج. ١، ص. ٤١.

٦ القرآن الكريم، ١٧: ٤٩؛ ١٧: ٩٨؛ ٤٤: ٣٥؛ ١٣: ٥؛ ٢٣: ٨٢؛ ٥٦: ٤٧.

٧ القرآن الكريم،١٧: ٥١؛ ٨٥: ١٣.

٨ ابن عاشور، المرجع السابق، ج. ٢١، ص. ٨٣.

٩ المرجع السابق، ج. ٢٢، ص. ٢٦٩.

١٠ سيد قطب، المرجع السابق، ج. ٦، ص. ٣٣٦٠.

١١ سيد قطب، المرجع السابق، ج. ٥، ص. ٣٠٩٠.

١٢ محمد علي الصابوني،صفوة التفاسير (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١) ج.١، ص. ١٩٥.